بـئـر زمـزم..
أسرار نبعه الغامض وفيضانه المستمر



لا يزال بئر زمزم بنبعه الفيّاض يبعث على الدهشة والسؤال حـول سر احتفاظه على دفقانه ونقاوته فضلاً عن أسراره الاخرى. كتب وبحث كثيرون عن هذا البئر المبـارك، وجـدير بنا أن ننقل شذرات مما كتب عنه إحياءً لتراثنا المقدّس، مورد فخر المسلمين والانسـانية بأسـرها. وكان فرّاج اسماعيل وحنان الزير قد أعدّا تقريراً حول البئر جاء فيه:

في منبعه الأساسي سر غـامض يعتـبره علمـاء الجيولوجيا كـنزاً كبـيراً ربما يسـتحيل كشف رموزه إلى أن تقوم الساعة.. ما من ماء يصل إلى هذا النبع حتى يكتسب خواص مـاء زمـزم، نقـاءه وطهارتـه. هـذه النتيجة ليست نظرية أو غيبية أو منقولة من بطـون الكتب القديمـة، لكنها خلاصة أبحاث علمية شملت البئر وماءه ودرجة نقائه، وشـملت ميـاه آبـار أخـرى قريبة جداً منه، وجد أنها لا تتمتع بنفس الخواص.

يفيض المـاء منه منذ آلاف السـنين دون أن يجـفَّ البـئر أو ينقص حجم الميـاه فيـه، وكـانت مفاجأة مدهشة للعلماء أثناء توسعة الحرم المكي وتشغيل مضخات ضخمة لشفط الميـاه من بئر زمزم حتى يمكن وضع الأساسات، أن غزارة المياه المسحوبة قابلها فيضان مسـتمر في الماء، يفور ويمور كأنه أمواج البحر.

فـإذا كـان العلم يقـول هـذا ويتعجب منـه، فـإن بعض المنقطعين للعبـادة في الحـرم المكي والعاكفين يروون أسراراً لا يجدون لها تفسيراً، فيكتفون باعتبارها من الغيبيات التي توجب الاستنكار أو الدهشة، فماء زمزم الذي يشربونه في انقطاعهم للعبادة تتغير خواصه فيصـبح كأنه لبن أو عسل مصفى.

مكنوز أسرار لا تستوعبه العقول

ويقول الكاتب السعودي عمر المضواحي المهتم بالكتابة عن الأماكن المقدسة إن هـذا البـئر هو أقدس آبار المياه عند المسلمين، وليس هنـاك شـراب على وجه الأرض يفـوق مكانة مـاء زمزم عندهم. ويحملون لهذا المـاء ذي الطعم الفريـد، قدسـية خاصـة، ويؤمنـون بأنه مكنـوز بأسرار لا قبل للعقل البشـري في اسـتيعابها، أو لا يعرفـون تفسـيراً لتغيّر خواصه ومنافعه وفق حالة شاربه ورغبته.

وهو في لغة (العارفين) بريد الأمنيات المحققة، ولا يخالط قلـوبهم ذرة شك في أن (زمــزم لما شرب له)، وبأنه كفيل بتحقيق أمنيات شاربه مهما كانت، شـرط أن يكـون مؤمنـاً صـادق الإيمان والنية، غير مكذب لخاصيته ولا يفعل ذلك كنوع من التجربة.

وعند هـؤلاء (العـارفين) أيضـاً أن الله مع المتـوكلين وهو يفضح المجـربين، فشـرب زمـزم عندهم للخائف أمـان, وللمـريض شـفاء، وللجـائع طعـام، ولا يخالط شـاربه, لإيمانه القـاطع بأسراره, أي عجب أو استنكار فيما لو تغير حاله من محض ماء, إلى شراب من سويق أو لبن أو عسل مصفى, للمنقطعين والعاكفين في البيت العـتيق. والمرويـات حـول هـذه الغـرائب كثيرة, ناءت بحملها بطون الكتب الدينية وأسفار التاريخ والسير.

يضـيف عمر المضـواحي: ما يزيد هـذا البـئر شـرفا عند المسـلمين أنه حفر بجنـاح جبريـل، وساقت الملائكة مياهه من أنهار الجنة غياثا للسيدة هاجر وإبنها الرضـيع إسـماعيل (عليهما السلام)، وسقياً لضيوف الرحمن، وليكون آية للناس على مر العصور والأزمان.

وقد كـانت رئاسة شـؤون الحـرمين الشـريفين, وهي الجهة الـتي تتـولى مسـؤولية العناية بالمسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي الشريف بالمدينـة, قد أكملت مشـروع توسـعة صـحن الطواف المحيط بالكعبة المشرفة، ليستوعب الآن نحو ثلاثة أضعاف عدد الطـائفين عما كـان في السابق.

وقامت بردم مدخل البئر السابق في الجنوب الشرقي من واجهة الكعبة المشرفة, وتسقيف سطحه المفتوح ليدمج مع صحن الطـواف. ونقل المـدخل الى خـارج الحـرم من جهة الصـفا في المسـعى باتجـاه جبل أبي قـبيس. ويهـدف المشـروع لمواجهة كثافة أعـداد الحجـاج والمعتمرين بعد موافقة الحكومة السعودية على فتح باب العمـرة واسـتقبال نحو 10 ملايين معتمر طوال تسعة أشهر من السنة.

ويستطرد المضواحي أن بئر زمزم هو بئر الماء الوحيد الذي تشرف عليه وزارة للبـترول في العالم، حيث تشرف وزارة البـترول والـثروة المعدنية على بـئر زمـزم باعتبـاره ثـروة قومية ودينية في البلاد.

ويصف الدكتور المهندس يحيى حمزة كوشك في حديث مع عمر المضواحي نشره في جريدة الشرق الأوسط عام 2004 ميلادية المشروع الجديد بأنه حل جيد من ناحية توسـعة المطـاف لكنه يؤيد مشاهدة الناس لبئر زمزم وبأي وسيلة كانت. وقال: ''كانت هنـاك فكـرة لتسـقيف سطح البئر بالزجاج الشفاف, لكن المشكلة أنه سيكون عائقا جديدا نتيجة تجمهر الناس عليه لرؤية البـئر مما سيتسـبب في مضـايقة الطـائفين, كما هو الحـال الآن, أمـام وخلف مقـام إبراهيم وخط بداية الطواف الجديد''.

البئر تحت صحن الطواف

ويؤكد الكوشك وهو أول خبـير سـعودي في الميـاه والـذي أشـرف على دراسة تاريخية لبـئر زمزم في العام 1401 هـ أنه: (لم تخرج بئر زمـزم من سـاحة الحـرم. وهو موجـود في مكانه تحت مستوى صحن الطواف.. وهو محاط بسياج من ألواح الزجاج السميك ليتمكن الناس من مشاهدته قبل المشروع الجديد بهدف منع الروائح النافذه التي كانت تنتج من اغتسـال بعض الحجاج والمعتمرين والمصلين, والذين كانوا يستخدمون ماء زمزم بشكل سيئ).

وقديما كان على البئر بناء تعلوه قبة مساحته 88.8 متر مربع يحتوى على غرف مسـتودعات ومستبرد لدوارق ماء زمـزم تم هدمه ما بين عـام 1381 ــ 1388 هــ لتوسـعة المطـاف. وتم عمل بدروم مكيف اسفل المطاف بمـدخل منفصل للرجـال والنسـاء. ويمكن رؤية البـئر من خلف حاجز زجاجي شفاف، كما استبدلت أيضاً طريقة الشرب القديمة التي كانت تعتمد على جلب الماء بالدلاء من جوف البئر إلى اعتماد أنظمة حديثة توفر ماء زمـزم عـبر نظم سـقاية حديثة لتوفيره مفلتراً وبارداً ومعالجاً بالأشـعة فـوق البنفسـجية ليكـون بأفضل المسـتويات الصحية.

نقود وأباريق شاي في قاع البئر

ويتذكر الكوشك في حديثه المشار إليـه، أنه تم إحاطة البـئر بالزجـاج لمنع النـاس من إلقـاء أشياء ومتعلقات وسط البئر طلباً للبركة وغيرها. يقول: (وجدنا أثنـاء عمليـات تنظيف البـئر نقود معدنية وأباريق شاي, وقـرون عظمية تحمل نقوشا وأعمـالا سـحرية. وكـان من بين ما وجدنا في البئر قطعة من الرخام كتب عليها المجاهد الليـبي عمر المختـار (رب حقق ما في نفسي!).

يضـيف الكوشك عن المشـروع الجديـد: (تم عمل نفق أرضي من خـارج الحـرم للوصـول الى البئر وهو خاص بعمليات الصيانة فقط. وكان هناك رأيين حول استخدامات هذا النفق. الأول

أن يتاح للراغبين في رؤية البئر الدخول منه من دون السماح بالإغتسـال فيه. والـرأي الآخر اسـتبعد ذلك لعـدة عوامل منها أن مسـافة النفق طويلة (نحو نصف ميل), ومسـاحته ضـيقة, ويحتاج الى أنظمة تهوية وإنارة وإجراءات أمنية).

المصدر الرئيسي تحت الحجر الأسود

ولماء زمزم أسماء تزيد عن (60) إسماً أشهرها زمزم، وسقيا الحاج، وشراب الأبرار، وطيبة، وبرة، وبركة، وعافية. وتمت عدة دراسات علمية بهدف معرفة مصادرها من الميـاه. وخلصت هذه الدراسات أن بئر زمزم تستقبل مياهها من صـخور قاعية تكـونت من العصـور القديمـة، وذلك عـبر ثلاث تصـدعات صـخرية تمتد من الكعبة المشـرفة والصـفا والمـروة وتلتقي في البئر.

أيضا ينقل عمر المضواحي عن المهندس فخري بخش مدير مبيعات مياه (أفيـان) الفرنسـية في شـركة البحـراوي السـعودية قولـه: إن شـركة فرنسـية اخـترعت جهـاز دقيق للغاية في تحليل تركيب المياه، وجاءت إلى السعودية لتسويقه. وقـام ممثل الشـركة بعـرض إمكانيـات الجهاز الحديث أمام مندوبي وكلاء المياه المحلاة والمعدنية المسـتوردة الى السـوق المحلي تبين فيه أن ماء زمزم كان أنقى المياه التي تم اختبارها في هذا الجهاز.

ويصف المهنـــدس يحي كوشك وهو يحمل شـــهادة الـــدكتوراه في هندسة البيئة من جامعة واشنطن الأمريكية العام 1971م مصادر مياه بئر زمزم وفق التحديد الذي قام به مع الفريق العلمي الذي رأسه عام 1400 هـ ونشر نتائجه في كتابه (زمـزم) بقولـه: "المصـدر الرئيسي فتحة تحت الحجر الأسود مباشرة وطولها 45 سـم، وارتفاعها 30 سـم، ويتـدفق منها القـدر الأكبر من المياه.

والمصدر الثاني فتحة كبيرة باتجاه المكبرية (مبـنى مخصص لرفع الأذان والإقامة مطل على الطواف)، وبطول 70 سم، ومقسومة من الـداخل الى فتحـتين، وارتفاعها 30 سـم. وهنـاك فتحات صغيرة بين أحجار البناء في البئر تخـرج منها الميـاه، خمس منها في المسـافة الـتي بين الفتحتين الأساسيتين وقدرها متر واحد. كما توجد 21 فتحة أخرى تبدأ من جـوار الفتحة الأساسية الأولى، وباتجاه جبل أبي قبيس من الصفا و الأخرى من إتجاه المروة.

ويبلغ عمق البـئر 30 مـترا على جـزئين: الأول مبـني عمقه 12.80 مـترا عن فتحة البـئر، والثاني جزء منقور في صخر الجبل وطوله 17.20 متر. ويبلغ عمق مسـتوى المـاء عن فتحة البئر حوالي أربعة أمتار، وعمق العيون التي تغذي البئر عن فتحة البئر 13 متراً ومن العيـون الى قعر البئر 17 متراً.

الماء فاض خلال 11 دقيقة فقط

ويقول عند حديثه عن ضخ مياه زمـزم: (بعد أن وضـعت أربع مضـخات قوية جـدا كـانت تعمل على مدار 24 ساعة, وبمعدل ضخ وصل الى 8000 لتر في الدقيقة. كان منسوب الميـاه من الفوهة 3.23 متراً، وكانت القراءة تتم كل نصف دقيقة، حتى وصل منسوب المياه في داخل البئر الى 12.72 مـتراً، ثم وصل الى 13.39 مـتراً، وفي هـذا العمق توقف هبـوط المـاء في البئر.

ولما تم توقيف المضـخات بـدأ المـاء يرتفع حـتى وصل الى 3.9 مـترا خلال إحـدى عشـرة دقيقة). وسـجّل مشـاهداته بقولـه: (لن أنسى ما حـييت هـذا المنظر الـرهيب، كـانت الميـاه تتدفق من هذه المصادر بكميات لم يكن يتخيلها أحد، وكان صـوت الميـاه وهي تتـدفق بقـوة يصم الآذان).

وقـال: وفقا للدراسـات الـتي قمنا بها وجـدنا أنه عنـدما تهطل الأمطـار على مكة المكرمة ويسيل وادي إبراهيم يزداد منسوب مياه زمزم زيادة طفيفة في البئر.

ولكن عندما تهطل الأمطار على المناطق المحيطة بمكة كالطائف وغيرها تزداد المياه زيادة عظيمة في بـئر زمـزم. ومعـنى هـذا أن المصـدر الأساسي للبـئر هو الجبـال المحيطة بمكة

والتصدعات الصخرية الموجودة فيها. وفي كتابي (زمزم) توجد صورة أخذت عبر الستالايت مرفقة بتحليل يبين أن كل هذه التصدعات الصخرية متجهة الى بئر زمزم.

السر يكمن في النبع الأساسي للبئر

أضاف: أعتقد أن السر يكمن في النبع الأساسي للبئر. فأي مياه تنبع من هذا المكان تكتسب خاصية ماء زمزم. والغريب في الموضوع أن هناك بئراً آخر في الحرم إسمه بئر "الداؤدية" وكان موجوداً عند باب إبراهيم ويبعد في حدود 120 متراً عن بئر زمزم، لكن نتائج تحليل مياهه تختلف تماما عن تركيبة ماء زمزم وهي النتيجة ذاتها التي توصلت إليها عند تحليل مياه عين زبيدة أيضاً.

يقول المضواحي: من لطائف ما يشاع بين المسلمين في حياتهم الإجتماعية أن يدعو الساقي لشارب الماء بأن يمد الله في عمره ليشرب من ماء زمزم. تماماً كما يتمنون لبعضهم البعض بعد فراغهم من الصلوات بقولهم (حرماً) فيجيب الآخر (جمعاً إن شاء الله!).

ومنذ القدم كان المكِّيون يستقبلون ضيوفهم بماء زمزم إظهاراً لتكريمهم والاحتفاء بهم. وهم يتفنون بتقديمه بارداً من دوارق طينية نظيفة مبخرة باللبان (المستكه)لإكسابه نكهة خاصة محببة للشارب منه. ولاتزال هذه العادة باقية حتى الآن.

لكنهم لا يقدمون في شهر رمضان على موائد الإفطار غير ماء زمزم الى جانب حبات من رطب التمر. ويحرصون على (تحنيك) مواليدهم حال ولادتهم بماء زمزم وبشق تمرة إقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم مع السبطين الحسن والحسين رضي الله عنهما.

كما يحرص المكِّيون على جعل ماء زمزم آخر ما يغسل به موتاهم قبل دفنهم رجاء بركته وحسن عائدته. ومن الطريف أن الأمهات في مكة يحرصون على شرب أبنائهم الطلاب ماء زمزم قبيل توجههم الى الاختبارات الدراسية رجاء أن لا ينسوا ما حفظوه من دروس للإجابة عليها في ورقة الاختبار.

ويألف كل من قدم الى المسجد الحرام رؤية معظم الحجاج والمعتمرين القادمين من الخارج على غسل قطع طويلة من قماش قطن أبيض اللون وغمرها بماء زمزم، ومن ثم تجفيفها في أروقة الحرم ليحفظوها بعد ذلك لاستخدامها تبركاً كأكفان لهم ولموتاهم في بلادهم.

كما أنه يندر أن يقفل حاج أو معتمر في رحلة العودة الى بلده دون أن يتزود بكميات منه يتحف بها أهله ومقربيه على سبيل الإهداء والتبرك بها.

ويحرص شيوخ الرقى الشرعية على التزود بكميات كبيرة من ماء زمزم ليتولوا قراءة القرآن عليه وتقديمه لقاصديهم من المرضى ومن مسهم الجن لشرب مقدار يحددونه لإتمام العلاج بالرقية.

الاستشفاء بماء زمزم

ويجيب الشيخ الدكتور عبدالله بن بيه وزير العدل الموريتاني الأسبق عن جواز استشفاء غير المسلمين بماء زمزم بقوله: لا أعرف في هذا نصاً. لكن الظاهر لي إذا كان المسلم يعالج غيره، فيمكنه أن يعالجه بماء زمزم حتى يظهر كرامة هذا الماء لغير المسلم، وحتى يكون من باب الدعوة له في دخول الإسلام.

وأستدل الشيخ العلامة بقصة تصدي بعض الصحابة (رضي الله عنهم) لعلاج رجل كافر كان لديغاً، فعالجوه بقراءة الفاتحة عليه. وأقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك كما ورد في الحديث الشريف".

وروى المؤرخ الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) قصصا تشير الى حب علماء أهل الكتاب لماء زمزم. ونقل عن أبي حصين عن مجاهد بن جبر التابعي المكي، شيخ القراء والمفسرين قوله: كنا نسير في أرض الروم، فآوانا الليل الى راهب، فقال هل فيكم من أهل مكة أحد؟

قلت: نعم، قال: كم بين زمـزم والحجر الأسـود؟. قلت : لا أدري، إلا أن أحـزره، قـال: لكـني أدري، إنها تجري من تحت الحجر، ولأن يكون عندي منها ملء طست، أحب إلي من أن يكـون عندي ملأه ذهبا.

وروى الشيخ سائد بكداش مصنف كتـاب (فضل مـاء زمـزم)عن محمد بن حـرب أنه قـال: إنه أسر في بلاد الـروم، وأنه صـار الى الملـك، فقـال لـه: من أي بلد أنت؟. قـال من أهل مكـة، فقال: هل تعرف بمكة هزمة جبريل ؟ قال: نعم ، قال: فهل تعـرف بـرة؟ قـال: نعم ، قـال: فهل لها إسم غير هذا؟ قال: نعم، هي اليوم تعرف بزمزم. قال: فذكر من بركتهـا، ثم قـال: أما إنك إن قلت هذا، إنا نجد في كتبنا: أنه لا يحثو رجل على رأسه منها ثلاث حثيات فأصابته ذلة أبدا.

نبع باق إلى يوم القيامة

وتـروي كتب التـاريخ الإسـلامي أن مـاء زمـزم نبع بـاق لا ينقطع الى يـوم القيامـة. وأن كل المياه تغور قبل يوم القيامة إلا زمـزم. وروي عن الضـحاك بن مـزاحم أنه قـال: (إن الله عز وجل يرفع الميـاه العذبة قبل يـوم القيامـة، وتغـور الميـاه غـير مـاء زمـزم). وروي عن ابن عباس أنه قال: صلّوا في مصـلى الأخيـار واشـربوا من شـراب الأبـرار. قيل لابن عبـاس: ما مصلى الأخيار؟ قـال: تحت المـيزاب (مـيزاب الكعبـة)، قيـل: وما شـراب الأبـرار؟ قـال: مـاء زمزم.

حضور غامض لزمزم في قصص الغيبيات

ومن العجيب أن المتفحص لقصص (الغيبيات) في الإسـلام، يجد حضـوراً غامضـاً لمـاء زمـزم خلف معظم الحالات. ودائماً ما يرتبط حضور زمـزم بـدور فريد وفعـال في كل حالـة. فبهـذا الماء المقدَّس غسل قلب النبي محمد (صلى الله عليه وسـلم) مـراراً، ودائما في طست من الـذهب وبيد جبريل عليه السـلام، توطئة لبعثته صـلى الله عليه وسـلم ثلاث مـرات، وتهيئة لمعراجه في طريقه للسماء مرة واحدة.

ويقـول الـدكتور المهنـدس سـامي عنقـاوي، رئيس مركز أبحـاث الحج: عنـدما كنا نحفر في زمزم عند التوسعة الجديدة للحرم كنا كلما أخذنا من مـاء زمـزم زادنا عطـاء، فقمنا بتشـغيل عدد من المضخات لكي نرفع الماء حتى يتيسر لنا وضع الأسـس, وكلما نشـفط الميـاه الـتي وصلت الى واحد وعشرين ألف لتر في الدقيقة تضخ مرة اخرى.

الأبحاث العلمية أكدت خلوه تماما من الجراثيم

وأضاف: قمنا بدراسة لمـاء زمـزم من منبعه لـنرى هل فيه جـراثيم، فوجـدنا أنه لا يوجد فيه جرثومة واحـدة.. فهو نقي طـاهر ليس فيه أدنى شـيء, لكن قد يحـدث نـوع من التلـوث بعد ذلك في استعمال الآنية أو أنابيب المياه أو الدلو فيأتي التلوث من غيره. ومن خصوصية ماء زمزم أيضا أنك تجده دائما فهو يعطي ويفيض منذ آلاف السنين إلى اليوم.

وكان الكـاتب المكّي المتخصص في الكتابة عن المشـاعر المقدّسة عمر المضـواحي قد كتب عن بئر زمزم بما نصه:

(ربما الحنين, وربما هو الشعور باللوعة على تنائي بئر زمـزم عن صـحن الطـواف!). كلمـات همهم بها الحاج عمر بن حبدي الأنصاري يصف فيها لسان حال الحجر والمقام والحطيم في البيت العتيق حزنا على فراق زمزم بعد وصال مضى لأكثر من خمسة آلاف عام. وأضاف وهو يرنو الى بهو المطاف من الطابق العلوي للحرم: (يحزنني أن لا أرى بئر زمـزم بجـوار الكعبة بعد الآن. أعلم أن المطاف يضيق بكثرة الطائفين والعابدين. وأن ماء زمـزم قـريب ومتـوافر في كل أركـان الحـرم. لكن قلـوب الحجـاج وضـيوف الـرحمن تهفو الى رؤية البـئر فهي آية معجزة، وفي النظر اليها عبر وعظات).

بئر ماء زمـزم تبعد نحو 18 مـترا من موقع الحجر الأسـود الى الشـرق من بـاب الكعبة. وهي خلف مقام إبراهيم (عليه السلام) والى اليسار منها علامة واضحة على قطعة مسـتديرة من

الرخام مكتوب عليها (بئر زمزم) تشير الى تعامـدها مع فتحة البـئر الموجـودة تحت مسـتوى المطاف بعمق 1.56 سم.

وهذه البئر هي أقدس آبار المياه عند المسلمين. وليس هناك شراب على وجه الأرض يفـوق مكانة ماء زمزم عندهم. وهم يعطون لهذا الماء ذي الطعم الفريـد، قدسـية خاصة. ويؤمنـون بأنه مكنـوز بأسـرار لا قبل للعقل البشـري في اسـتيعابها، أو تفسـير تغـير خواصه ومنافعه وفق حالة شاربه ورغبته.